بيان الحداثة عند أدونيس

إن مسألة التجديد الشعري كانت الشغل الشاغل لأدونيس، منذ انطلاقه في مسيرته الشعرية وذلك من خلال قصيدته (البعث والرّماد) 1957 م، ثم تجلى أكثر من خلال قصيدة (أغاني مهيار الدمشقي) 1962 م، لذلك يعد أدونيس الرّائد الأوّل للحداثة الشعرية العربية من حيث الشكل والمضمون.

جاء أدونيس ببيان الحداثة ليتحدث عن معالم الكتابة الجديدة « فالقصيدة الجديدة عند أدونيس تتجاوز شعر الموضوعات الذي ينطلق من التبعثر إلى الشعر الكلي.»

ويذهب أدونيس إلى تعريف القصيدة الحداثية بأنها « رؤيا والرؤيا بطبيعتها قفزة خارج المفهومات السّائدة » فالكتابة الشعرية عنده، تقوم على كلية التجربة الإنسانية، وتتخلى عن الجزئية والتفكك البنائي، وكذلك النظرة الأفقية، الشكلية التي تعتمد على البلاغة والتصوير والزخرفة اللّغوية ، ولكنه يغوص في باطن الأشياء، ليراها في صفائها الحقيقي، إنه يستغني عن الفكرة أو الصورة للحصول على الكل الشعري، كما يتخلى عن خطابية الفكرة أو العاطفة، والتعبير المباشر، ليعوضها بالصورة والرمز والغموض واللّغة الشعرية.

إن القصيدة الحداثية تتمرد على السائد والمألوف، وتسعى جاهدة إلى التساؤل والبحث عن الجديد، وتستبدل النموذج باللانموذج والشكل الثابت للقصيدة، بالشكل المتحرك، فكل قصيدة شكلها الخاص، وتستبدل الزمن المطلق بالمنفتح المتغير، والغنائية الفردية، بالغنائية الكونية، كما تستبدل تعريف الشعر القديم المحصور في إطار جزئي إلى تعريف جديد، وهو أنه تجربة شاملة وموقف من الحياة والعالم والإنسان في إطار متحول»

موقف = رؤيا

بناء على ما سبق يتحدد مبدأ المغايرة والاختلاف عند أدونيس

1- المغايرة والاختلاف:

إنّ الإبداع الذي يبحث عنه أدونيس، يجب أن يكون بعيدا عن المألوف ، ويحيد عن المعاني الظاهرية البسيطة، وهذا لا يتحقق إلاّ من خلال التجارب الجديدة ، والرؤيا المغايرة للغة والخروج عن المألوف، والتحرّر من القوالب الجامدّة للغة، وبذلك تسمو لغة الشعر عن اللّغة العادية، ذلك أن لغة الشعر هي لغة الإشارة ، في حين أن اللّغة العادية هي لغة الإيضاح ، ويريد أدونيس بلغة الإشارة ، لغة الخلق فالشعر يخلق لغة لا عهد لنا بها ، وبذلك يشحن الكلمات بمعان جديدة ويعتقها من معانيها القديمة.

وقد حدّد أدونيس طريقة استخدام اللّغة مقياسًا للتمييز بين الشعر والنثر، حيث لا يرى الوزن معياراً للفصل بين الشعر والنثر، لأن الشعر عنده أكبر من أن يتحدد بهذا المعيار (الوزن) فأساس التمييز بينهما يكمن في اللّغة، التي يجب أن تحيد عن لغة القدماء وعن المألوف وتخرج إلى عوالم الدهشة والإثارة والمجاز، حيث يمكن لكل شاعر أن يبدع تاريخا جديدا بكلماته، يقول أدونيس: «إن طريقة استخدام اللّغة مقياس أساسي في التمييز بين الشعر والنثر، فحيث نحيد باللغة عن طريقتها العادية في التعبير والدلالة، ونضيف إليها طاقتها وخصائص الإثارة والمفاجأة والدهشة، يكون ما نكتبه شعرًا.»

ولكن كيف تحدث هذه المغايرة وهذا الاختلاف، وكيف يتم تحويل اللّغة من عادية، مألوفة، إلى لغة شعرية، متجددة ومتحررة؟

تتحقق المغايرة في الإبداع الشعري عبر تفجير اللّغة.

2- تفجير اللّغة:

لابد للكلمة في الشعر أن تعلق على ذاتها، أن تزخر بأكثر مما تعتد به ، وأن تشير إلى أكثر مما تقول، علينا في الشعر أن نخرج الكلمات من لباسها العتيق، على الشاعر أن يفجّر اللّغة ويفكّ أسرها، أن يحرّرها ويبعثها إلى فضاء أرحب من الدلالات والإيحاءات، ففي كل مرّة تلتقطها معان جديدة وتلبسها ثوبا جديدًا بعيدا عن معانيها الأصلية ، وتعتقها من قبضة المعاني المعجمية.

إن تحرير اللّغة عند أدونيس لا يكمن في الجوانب اللغوية والصرفية ، بل في تغيير رؤية الشاعر نحو السائد في العالم، ومن خلال هذه الرؤية يتم تحويل الأحداث الموجودة في الواقع إلى رموز، فلا يصلنا الحدث كما هو وإنما تصلنا دلالاته وأبعاده وهنا «يصبح للكلمة ضوء ووهج جديدان وعلاقات جديدة ، وظلال أخرى تتجدد وتتغير حسب سكنها كل مرّة في سياقات متكبرة وجديدة .»

هكذا يتكئ أدونيس في رسم معالم التجديد الشعري في مشروعه الحداثي، على لغة قوامها الغموض والرّموز، والتي تتحقّق عبر عملية الخلق المستمر والمتجدّد من طرف الشاعر، والتي من شأنها تفجير مكامن اللّغة وأسرارها والبحث خارج دلالاتها المعجمية، عن طريق البحث المتواصل لإيجاد توظيفات وقنوات تؤدي إلى تحقيق الغموض والرّمز، عبر توظيف الأسطورة مثلا وتوظيف القرآن والموروث ولكن بطرائف جديدة ومختلفة كل مرة ، مما يجعل اللّغة مستعصية على الفهم، وهو ما يؤهلها إلى أن تصبح ساحرة ومشوقة.

يقول أدونيس:

ليس من شهواتي
أن أفيئ إلى عبرة
أو إلى حسرة وأرقق شعري بها
وأبكي وأبكي ، شهواتي
أن أظل الغريب العصي
وأن أعتق الكلمات من الكلمات

ويقول أيضا:

أقسمت أن أكتب فوق الماء
أقسمت أن أحمل مع سيزيف صخرته الصّماء
أقسمت أن أظل مع سيزيف
أخضع للحمى وللشرار
أبحث عن المحاجر الضريرة
عن ريشة أخيرة
تكتب للعشب وللخريف
قصيدة الغبار

3- الغموض: ومعناه أن تصبح اللّغة الشعرية، عصّية على الفهم ساحرة ومشوّقة ، ذلك أن حقيقة الشعر وجوهره يكمن في غموضه وتمنّعه، فالشعر يحتاج إلى قاموس حافل بالمطامح

والهواجس، لا ركام من الألفاظ يتم رصفها رصفا اعتباطيا « فالشعر الجديد فن يجعل اللّغة تقول مالم تتعود أن تقوله ، فمالا تعرف اللّغة العادية أن تنقله، هو ما يطمح الشعر الجديد إلى نقله، يصبح الشعر في هذه الحالة ثورة على اللّغة "
يقول أدونيس:

لا كتاب، خطواتي كتابي، لغتي خطواتي، كل سطر بلادُ
أتفحّص أنحاءها عشبة عشبة
أتمثّل إيقاعها وأسافر فيه، أروح وأغدو
صفحة من غبار
صفحة من شرار:
جمل تتقاطع في ظلمات، جمل تتوازى

تلك هي بعض مهمات اللّغة الجديدة، إفراغ الكلمة من قواعدها النحوية والصرفية، وشحنها بدلالات غير مألوفة، فالشعر الجديد كسر للغة وعلاقتها المنطقية، وليس على اللّغة إلا أن ترمز وتلمح لا أن تصرّح وتوضح ، وفق رؤية للعالم تعكس تناقض هذا العالم وغموضه.
يقول أدونيس:

مزجت بين النار والثلوج
لن تفهم النيران غاباتي ولا الثلوج
وسوف أبقى غامضا أليفا
أسكن في الأزهار والحجارة

أوهام الحداثة عند أدونيس:
1- الزمنية: وهو ربط الحداثة بالعصر الرّاهن وهي نظرة شكلية، تلحق النص الشعري بالزمن فتؤكد على اللّحظة الزمنية، لا على النص ذاته فالحداثة خصيصة تكمن في بنية النص ذاتها.
2- المغايرة: وتعني أن التغاير مع القديم موضوعاً وشكلا هو جوهر الحداثة ، فيكفي الشاعر أن ينتج قصيدة تغاير القصيدة الجاهلية أو العباسية لكي يكون حديثا، وهذه نظرة آلية تقوم على فكرة إنتاج النقيض فقط، من شأنها تحويل الإبداع إلى لعبة التضاد ، وهي مثل سابقتها فالأولى تضاد الزمن بالزمن والثانية تضاد النص مع النص، وهكذا يصبح الشعر تمويجاً ينفي بعضه بعضًا.
3- المماثلة: يرى البعض أن الغرب مصدر الحداثة، بمستوياتها المادية والفكرية والفنية وتبعًا لهذا الرّأي لا تكون الحداثة خارج الغرب إلا في التماثل معه ، وعلى هذا النحو تصبح مقاييس الحداثة في الغرب، هي مقاييس الحداثة خارج الغرب.
وهذا إقرار مسبق بتفوق الغرب، لكن ألا تبدو المماثلة هنا استلابا كاملاً ، أي ضياعًا في الآخر حتى الذوبان؟ والحق أن شعر المماثلة هو الوجه الأكثر إغراقا في ضياع الذات، حيث أنه لا يكتب شعره الخاص وإنما يعيد إنتاج شعر ذلك الآخر.
4- التشكيل النثري: يعرف بعض الشعراء أن الكتابة بالنثر من حيث هي تماثل للغرب ، وتغاير مع الكتابة العربية إنما هي ذروة الحداثة.
5- الاستحداث المضموني: وهي أن كل نص شعري يتناول إنجازات العصر وقضاياه، هو

بالضرورة نص حديث، فقد يتناول شاعر هذه القضايا برؤية تقليدية، فكما أن حداثة النص الشعري، ليست في مجرّد زمنيته أو مجرد تشكيليته ، فإنها كذلك ليست في مجرد مضمونيته.

للتوسع أكثر:

1. بشير تاوريريت، آليات الحداثة الشعرية عند أدونيس.
2. سعيد بن زرقة، الحداثة في الشعر العربي، أدونيس أنموذجا.
3. عبد الغني بارة، إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي المعاصر، مقاربة حوارية في الأصول المعرفية.
4. عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر.
5. إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث.
6. أدونيس، مقدمة للشعر العربي.